مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
الإصدار السابع
المجلد (٣) العدد (٢)
٢٠٢٢ (٧٣-٨٢)

هجْرَةُ النظرياتِ الأدبية
-بيْنَ ظروف النّشْأةِ وصِيَغِ الارتِحالِ -

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

عبدالرحمان الحَرتي
أستاذ اللغة العربية وآدابها بالسلك الثانوي، طالب باحث بسلك الدكتوراه،
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، **المغرب**
البريد الإلكتروني: ***saleverde1949@gmail.com***

نشر إلكترونياً بتاريخ: **٢ مايو ٢٠٢٢**

Abstract

This study attempts to accentuate that literary theories are subject to death. However, the death meant here should not be understood literally. Rather, it is the symbolic death that results from the failure of the theory to produce meaning and its defeat vis-à-vis the literary text. To live, a theory is under the obligation of continuously changing its position and relocating to different areas just like humans and objects do so as to embark the vast world. it is this movement that assists the literary theory in updating the reading tools and strategies that develop it. Thus, it guarantees its continuity. In this sense, the current study tackles the different conditions and contexts that allow the creation of a literary theory. It also targets unraveling the forms through which the transverse of meanings takes place and the obstacles that hinder it.

الملخص

تُحَصِّنُ هذه الدراسةُ، في مُختلفِ أطْوارِها، النظرياتِ الأدبيةَ وما ينطوي عليها من أفكارٍ ومفاهيمَ مِن الموْتِ، وتُؤَمِّنُ لها الطّاقةَ الإنْتاجيةَ التي تَمْنَحُها الحياةَ. نعَمْ ! النّظرياتُ تموتُ بالفعْلِ، لكنّ موْتَها لا يتحقّقُ بالمعنى الذي هيَّأَهُ رولان بارت لِمَوْتِ الكاتِب. إنَّه نتيجةٌ حَتْميةٌ لانْهِزامِ النّظرية أمامَ النّصوص

الأدبية وعَجْزها عن بناء المعنى. بهذا التّصوّر، تظلُّ حياةُ النّظريةِ مشْدودةً إلى قُدرتِها على تغييرِ مَوْقِعِها باستمرار. بالهجرةِ والارتحالِ إلى جغرافياتٍ مختلفة، تُجَدِّدُ النظريةُ إمْكاناتِها القرائيةَ، وتُحوِّلُ موْقِعَها إلى منطقةٍ لا تنْفَدُ في تخْصيبِ النصوص. وبالانغلاق والتّقَوْقُعِ، يتمّ تَشْييعُها إلى مَثْواها الأخير، وإعلانُ مَوْتِها. وَفقَ هذا الوَعْي، تَشرَعُ الدّراسةُ في الإنصاتِ إلى مختلف الظروف والسّياقات التي تسْمَحُ بتَشَكُّلِ النّظرية وَوِلادتِها، لِتنتقِلَ إلى استِقْصاءِ الصّيَغِ التي تَتمُّ عبْرَها عملية النّقْل، ومُلامَسةِ ما يترتّبُ عن هذا الفِعْلِ من معيقاتٍ.

الكلمات المفتاحية: نظرية الأدب، المفاهيم، الانتقال، النقل، التحويل، العوائق

*** المقدمة**

في مقامِ البَدْء، لا بُدَّ أن نؤكّدَ على أنَّ المَنْفَذَ الرّئيسَ الذي سَنُعوِّلُ عليه، ونحن نستَدْرِجُ مسْألةَ انتقالِ النّظَرياتِ الأدبيةِ كشَكْلٍ من أشكالِ التفاعُلِ الثقافي وتبادُلِ التأثيرِ والتّأثّرِ بين الأُمَمِ والشعوب، هو الحِرْصُ على صَوْنِ الحياةِ الثقافيةِ والفِكرية من التّحَجُّرِ والعُقْم، باعتبار هذا الانتقال هو الضّامن الذي يُؤَمِّنُ لها ماءَها وحياتَها. ولأنَّ العُقْمَ موتٌ، ما دامَ يُصرِّحُ بعجْزِه عن الإنتاجِ والولادة والتّجَــدّد، فإنّه بذلك لا يتساوَقُ والأهدافَ التي تنْشُدُها الحياة الثقافيةُ، والتي تظلُّ، أبَداً، في أمَسِّ الحاجة إلى أنْ تَحْفَظَ نفْسَها كمنطقة خَصيبة، وتُحَصِّنَ نفسَها من كُلِّ انغلاقٍ وجُمُودٍ. وذلك عبْرَ تفْعيلِ دَوْرَةِ الأفكار، والسّماحِ بانتقال النّظريات الأدبية بمفاهيمِها المُسْتنْبَتة، والمناهجِ النقديةِ بأدواتِها الصّارمة، كآلياتٍ غذائيةٍ تستمدُّ منها أسبابَ الحياة والخلود.

لنْ نُخضِعَ مسألةَ هجرةَ النظرياتِ للتّأمُّل استناداً إلى الثنائياتِ التي تحْتفي بالنّظرية الغربية وتُمجِّـــدُها من خلال إرساءِ نظْرةٍ استعلائية، كثنائيات: أصْل/تقليد، منبع/مَجْرى، مُنتِج/مُستهْلِك، أو من المَنْطِقِ الذي يُصَيِّــرُ الأمّةَ المَغْلوبةَ، بالضّرورة، تابعةً ومقلِّــدَةً للأمّة الغالبة. لأنَّ هذا الموْقِعَ القرائي لنْ يكشِفَ سوى عن صيغةٍ واحدةٍ من صيغِ الانتقال التي ننْوي استقْصاءَها. وبالتالي، سيُقْحِمُ الدّراسةَ في أفقٍ ضيّقٍ، وسيُسيِّجُها بحدودٍ تحتفظ لها بدرجاتٍ من النّقْصان. هذه الفجْوة القرائيةُ المُترتِّبةُ عن الثنائيات السّابقة يُمكِنُ عَدُّها مناقضةً لتصوّراتنا عن فِكرة عالَمِيّة الأدب، التي جسَّدَتْها الدّعوة الصّريحةُ للمبدع الألماني "**جوته** Goethe" حينما تنبَّأَ بأُفُول الآداب المحلّية أو القَوْمية لصالحِ أدبٍ أكثرَ شأناً هو الأدب العالمي، ما جعلَه يشدِّدُ على ضرورة الارتقاء بالإبداعاتِ حتى يتسنّى لها الظفَرُ بمنزلةٍ في الأدب العالمي، "إن كلمة أدب قومي لا تعني شيئا كبيرا اليوم، إننا نسير نحو عصر الأدب العالمي، ويجب على كل شخص أن يُسْهِم في تسريع قدوم هذا العصر. و لكن مع تقدير كل ما يأتينا من الخارج، لا يجب علينا أن نضع أنفسنا في مقطورته، ولا أن نأخذه نموذجا...[1] ". هذا الوعْيُ بعالمية الأدب هو ما سَيَسْمَح بافتراضِ مداخِلَ قرائيةٍ واعدةٍ تجْعَل من عملية انتقال الأفكار والنّظريات شرْطا للحياة، وضامِناً لقيامِ النشاط الفكري، بعيداً عن الثنائيات المُكرّسة للهيمنة والتفوق والزّهْو المتعجرف

[1] دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، (د، ط)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د، ت)، ص29.

بالآداب المحلية. " وسواء اتخذتْ حركةُ انتقالِ الأفكار والنّظريات، من مكانٍ إلى آخرَ صيغةَ التأثير المُعتَرَف به، أو اللاّواعي، وشكلَ الاقتباس الخــلاّق، أم صورة الانتحال، والاستيلاءِ بالجملة، فإنّها تبقى، في آنٍ معاً، حقيقةً من حقائق الحياة، تُؤلّف شرْطاً، عادة، يؤدّي توفّرُه إلى قيامِ النّشاطِ الفكري[2]".

*** إشكالية البحث**

لا تخْفى أهمّية هذه الدراسة في مسْعاها إلى البحث عن الصيغ التي ترتحل عبرها النظريات الأدبية والفاهيم. وهي في نفس الوقت تتغيّا إكْسابِ مفهوم "هجرة النظريات" معنى أكثرَ شمولاً. ذلك ما تُعزِّزه مجموعة من المحطّات التاريخية التي تؤكّدُ الحركاتِ الانتقاليةَ بين ثقافتَيْ الشرق والغرب، وتُبينُ عن اجتذابِ الأفكارِ واستجلابِ المفاهيم من منطقة جغرافية إلى أخرى. واللاّفتُ أنّ عمليةَ تخطّي الحواجزِ الزمانية والمكانية لم تتمَّ بطريقةٍ ميكانيكيةٍ أشبَهَ بعمليّة الزّرْعِ. وبالتالي فهي أبعد ما تكون عن الكيفية التي يرتحلُ بها الأفرادُ وتنتقلُ بها السِّلَع. إن هذه الدراسة تفصحُ عن كون هجرة النظريات والمفاهيم تنطوي على عملياتٍ أكثرَ تعقيداً من التّمَثّلِ والتّأسيس، اللّذَيْنِ يجعلانِ النظريةَ تُغيِّرُ من جلْــدها، وتُوسّعُ آفاقَها، وتُعدِّلُ من إمكاناهّا وآلياهّا القرائية سَعْياً منها إلى التّكيُّفِ، من جهة، مع الوسيطِ الذي تسَلَّلَتْ عَبْرَه في عملية الارتحال. ومن جهة أخرى، مع البيئة الي احتذَبَتْها، والأرضية الجديدة التي لامَسَتْها.

١– النّظريةُ وشروطُ التشَــكُّل

لن يكونَ بالإمْكانِ الإنصاتُ إلى مختلفِ الصِّيَغِ التي تجري بها عمليةُ ارتحالِ النظرية الأدبية (الزّرع، النّقْل، الانتقال، التحويل،...)، ولا الوسائط التي تتسَلّلُ عبْرَها النظريةُ للبحث عن آفاق جديدة، ومناطق جغرافية لاحتضانها، ما لَمْ نُنصِتْ إلى الشروطِ التي أتاحَتْ لها التشكُّــلَ في بيئتها الأصلية، والسياقات الخارجية التي سَمحتْ بقيامها. هذه الخطوةُ نراها أساسيةً لأنّها ستسْمَــحُ بمُلامسة التطابُقِ بين وضعية النظرية قبْلَ وبعد الانتقال، كما ستُخَوِّلُ رصْد ما يعْتَريها من تغيّراتٍ على مستوى الآليات والمفاهيم. وسنكــونُ مَدينين بشكل كبير، في هذا الجزء من الدّراسة، لجهود الدكتور سعيد يقطين التي أتاحَتْ له تحْصيلَ مكاسِبَ ثمينةٍ في مقاله الموسوم ب"انتقال النظرية السّردية".

تَشَكُّلُ النَّظرية الأدبيةِ خصوصاً، والنظرية عموماً، حسبَ ما تسْمحُ قراءة سعيد يقطين ببنائه، عمليةٌ مُكَبَّلَةٌ بقيــودٍ عديدة، وَفعْــلٌ مَحْكُومٌ بمُستلْزماتٍ وشروطٍ مخصوصة. ويظلُّ **السّياقُ** أحَدَ أهَمِّ هذه المستلزَمات. ذلكَ أنّه يستحيلُ الاقترابُ من أيّ نظريةٍ بمَعْزِلٍ عن سياقٍ عامٍّ يُهيِّءُ الظروفَ المناسبة لتشكّلها، ويَضْمَنُ لها " إمكانَ التّطَوّرِ بناءً على توافُرِ المستلزَمات لذلك[3]". إذا فهمنا "السّياقَ" اعتماداً على هذا التّصوّر، تبَيَّــنَ أنّه مجموعة من الظروف الأوّلية التي بلْوَرَتْ النّظريةَ في نقطةِ المَنْشَأ، وسهَّلَتْ قيامَها، وجعلَتْها ترى

[2] ادوارد سعيد، انتقال النظريات، ترجمة أسعد رزوق، مجلة الكرمل، العدد التاسع، 1983م، ص12.

[3] سعيد يقطين، انتقال النظريات السردية، المشاكل والعوائق، ضمن، انتقال النظريات والمفاهيم، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط 1999، ص56.

النّورَ أوّلَ مرة. إنّه نلك القوّةُ الخلاّقةُ التي تُوجدُ النَّظَرِيةَ، وتعْمَلُ على بَسْطِ إشْعاعاتِها عليها، فينبعِث منها ما يُلائمُ ذلك السِّياقَ بالضبطِ، من مفاهيمَ وآليات قرائية. ولذلك جَازَ أنْ نقولَ إنّ النظريةَ الأدبيةَ محكومةٌ بسياقِها، ونابعةٌ من الملابسات الخارجية، تاريخيةً كانت أم سياسيةً أم اجتماعية أم ثقافية....، وعمليةُ نَقْلِها دونَ مراعاةٍ لهذا السياقِ تنطوي على كثير من التعْديلِ المُخلّ، وفي أحايينَ عدّةٍ، على كثير من التشويه والتحريفِ لأُسُسِ النّظرية.

هو ذَا المَكْسَبُ الأوّلُ الذي حَصَّلْنَاهُ قصْدَ استِثْماره في مسالكَ قرائيةٍ مُؤَجّلَة، وقدْ أتاحَ لنا تأمُّــلَ النظريةِ من موْقعِ السياق الذي تنْتسبُ إليه، ومن رَحِمِ الظروف والمُلابساتِ المختلفة التي سَمَحَتْ بتشكُّلها. غيرَ أنّه لا بُدَّ من الانتباه إلى أنّ محاولةَ رَسْمِ صورةٍ متكاملة عن نشأة النّظريةِ وتشكُّلِها، لا يمكنُ أن تكتَمِلَ بالارتكانِ إلى رؤْيةٍ تُرَكِّزُ كاملِ اهتمامها على السِّياق. ذلك أنّ هناكَ أبعاداً أخرى ينبغي استحضارُها هي الأخرى، كَوْنَها تفرِضُ نفسَها كشروط فاعلة، ومن أهمّها شرط "**الانتظام الذاتي**" الذي عَوَّلَتْ عليه قراءةُ الدّارِسِ كأحَد المستلْزَمات الأساسية لنشْأة النّظرية، ويُقْصَد به "البُعــدُ النّسَقي الذي يُحــدِّدُ لها (أي للنظرية) مجموعة من القواعد والمبادئ التي تتأطّر في نطاقها، مُجَسِّــدَةً بذلك خصوصيتَها والإشكالاتِ المركزيةَ التي تنطلق منها وتسعى إلى تدْقيقِها ووَضْعِ حدودها، ورَسْمِ معالمها وآفاقِها[4]".

تُمثّلُ استعارةُ سعيد يقطين لمفهوم "الانتظام الذاتي" بِدَوْرِها تجلّياً من تجلّيات المفاهيمِ الجَوَّالةِ وقُدرتِها على الارتحالِ من بيئة إلى أخرى، ومن مجالٍ إلى مجال. ذلك أنّه قامَ باجتذابِ المفهوم من الحَقْلِ العلمي ليقيسَ به شروطَ ومستلْزماتِ تشكّل النّظرية. وفي ظل الإيجازِ الشّديد الذي وسَمَ تعاطي الدّارس مع المفهوم، ما جعلَها ملفوفاً باللّبس والغموضِ، ومُحاطاً بالحيْرةِ التي تُعيقُ ملامَسَةَ ما ينطوي عليه من دلالاتٍ، تعيَّنَ علينا الانفتاحُ على دراساتٍ انصبَّ رهانُها على شَقِّ مسالكَ قرائيةٍ في الانتظام الذاتي، وخرَجْنا منها بخلاصة مفادُها أنَّ تعويلَ د،يقطين على هذا المفهوم تَمَّ باعتباره الضّامِنَ للترابط بين عناصر النظريةِ، لأنّه يُسْعِفُ في تسييجها ضمنَ حدودها الخاصّة، ويضمَنُ لَهَا التميّزَ عن بقية النظريات، كما يُولِّدُ الانتظامَ بين مبادئِها ومفاهيمِها. ذلك أنّ الملامحَ الرّئيسَةَ التي يقومُ عليها مفهوم الانتظام الذاتي تتمثّل في "قُدرةِ هذه المنظومات (النظريات) على توْليدِ الانتظامِ بداخلها بدون أيّ تدخُّلٍ من خارجها...، ثُمّ انفتاح هذه المنظومات على بيئتها بعْدَ وَضْعِها بُعْداً كبيراً عن وضع الاتّزَان. وأخيراً، ترابط مكوّنات هذه المنظوماتِ عبر علاقاتٍ غير خطّية[5]".

وعموماً، فاستحضارُ بُعْــدَيْ السياق والانتظامِ الذاتي مُنْطَلَقٌ رئيسٌ لِفهْمِ الكيفية التي تتشكّل بها كلّ نظرية. ويبقى الرّهانُ أيضاً على البُعد الثالث والأخير الذي يمَنحُ للنظريةِ إمكانيةَ نَسْجِ خيوط ووشائجَ تشدُّها إلى نظرياتٍ أخرى بحسب المسافةِ التي تفصلُ بينهما ودرجة القرب أو

[4] المرجع نفسه، ص56.

[5] السيد نصر الدين السيد، الانتظام الذاتي، انبثاق النظام من الفوضى، كرّاسات علمية، المكتبة الأكاديمية، ط2014، ص36.

البعد. إذ يُمكنُ أن تدخل معها في علاقات تشابه أو اختلاف، أو علاقات حوار أو صراعٍ، "ويسْمَح لها هذا بتحقيق التفاعُل مع غيرها بشتّى الصور المُمكِنة، وَوَفْقَ منظور دينامي يُتيحُ لها إمكانات التطوّر أو المساهمة في بَلْوَرة نظريات جديدة، متفرّعة، أو تُمِدَّ نظريات أخرى باحتمالات جديدة ومنفتحة[6]".

٢- صِيَغُ ارتحالِ النّظرية.

تميَّزَت القراءة التي خَصَّ بها ادوارد سعيد قضيّةَ هجرة النّظريات والمفاهيم والأفكار، باستدْراجِ عمليةِ الارتحال لِتَكْشِفَ عن المراحل التي تنْطَوي عليها. وفي هذا الصَّدد، أكّدَ الباحثُ على أنّ النظرياتِ في صَيْرورتها وانتقالها إلى جغرافياتٍ مختلفة، مُلْزَمَةٌ بالمرور عبْرَ مراحلَ أربع أساسية: ففي البداية، يتحدّث الدّارسُ عن اللحظة الأولى التي تُمَثِّلُها الأرضيةُ الأصلية التي وُلِدَتْ فيها النظريةُ وتَرَعْرعتْ، إنّها نُقطة **المَنْشَأ** حيث تضافرتْ الظروفُ الأولية التي كانت وراءَ وِلادة الفكرة وإبْصارِها النّورَ، وفَرْضِها مكانةً خاصّة في مجال التداول والمحادثة. ثم تأتي، كخطوة ثانية، **المسافةُ** التي يتمّ اجتيازُها في عملية الانتقال، إذ "ثمَّةَ مسافةٌ يتمّ اجتيازها، وعبورٌ من خلال الضغط الذي تمارسه مختلفُ القرائن لدى انتقال الفكرة، من نقطة سابقة إلى نقط تالية، في الزّمان والمكان، حيث يتهيّأُ لها إحراز شُهرَة جديدة[7]".

سياقُ هذه المرحلةِ مُتَعدِّدُ الفروع، غيرَ أنّ ما يُهِمّنا منهُ، هو أنّ محاولةَ إدماجِ النظريةِ وتَرْسيخها في بيئة جديدة تبقى مُتَعذِّرَةً ما لْم تُتَحْ لها ظروفُ التّقبُّل والتمثُّلِ والاحتضانِ. لذلك، يراهِن ادوارد سعيد على هذه الظروف، أو الشروط، التي يُسمّيها **شروطَ القبول**، بلْ ويعتبرها جزءاً حتْمياً من عملية التّقَبُّلِ، "هي كنايةٌ عن مقاوماتٍ تُجابهُ النّظريةَ، أو الفكرةَ المزروعةَ. جاعلةً من الممكن إدخالها، أو التّساهُلُ حيالَها، مهما بدَتْ تلك النّظرية، أو الفكرة، غريبةً[8]". أمّا المرحلة الرّابعة، والأخيرة، فَيتمّ إدراجُها ضمن ما يسمّيه الدّارسُ **الاحْتِواءَ الكامل للنّظرية**، إذْ يَعْتَريها شيء من التغيير، ويَطَالُها تعديل نسبي جرَّاءَ الاستخدامات الجديدة، من جهة. وبسبب الوسائطِ التي تتسَلَّلُ عَبْرها لتخْرُجَ منها على غيْر هيْئَتها الأصلية. هكذا، إذن، يتمُّ تحويلُ النظرية التي جرَى استيعابُها، أو إدماجُها كلّياً أو جزئياً، من خلال توظيفها الجديد، وعبْرَ موقعِها في مكانٍ وزمانٍ جديدَيْن.

تبدّى من مُصاحبَة ما اعتبرْناه محطّاتٍ اساسيةً في عمليةِ الهجرة التي تضْطَلِع بها النظريةُ، أنّ الانتقالَ لا يعني بالضّرورة التّحَوّلَ، إذ العلاقة بينهما ليست استِلْزامية، وهو ما يجعَلُ التمييز بينهما ضرورياً. فالأوّل، أي الانتقال، يتمّ بأشكالَ وتجلّياتٍ متعدّدة، قد تقترِن بعملياتِ "تحَوّل" إذا ما هّيأتْ الأسبابُ والشروطُ لقيامها، وقد تتجرَّدُ منها. فانتقال

[6] سعيد يقطين، انتقال النظريات السردية، المشاكل والعوائق، ضمن، انتقال النظريات والمفاهيم، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط 1999، ص56.

[7] ادوارد سعيد، انتقال النظريات، ترجمة أسعد رزوق، مجلة الكرمل، العدد التاسع، 1983م، ص13.

[8] المرجع نفسه، ص13

النظرية، شأنُه شأنُ انتقال المفاهيم، "يتطلّبُ مستوياتٍ من الفهْم والوَعْي تُدْخِلُ المفهومَ (أو النظرية) إلى حَيِّز التحوّل بعد أن يُصْبِحَ محاطاً بعواملَ تداولية وجدالية، تُكسِبُهُ أبعاداً ايديولوجية قد لا تكون مرتبطةً به في أصله قبل الانتقال[9]"

لم يَكُفَّ هذا القوْلُ عن عَدِّ "امتلاكِ الوَعْي النّقدي" عنصراً رئيساً مُتحكِّماً في عملية الانتقال. هذا العنصرُ يتماشى مع عناصرَ أخرى تفرْضُ رقابتَها على عملية ارتحال النظرية، وتقوم بتَوْجيهها. وأوّلُ هذه العناصر **"عنصرُ الزّمَن"**، سواء تعلّقَ الأمر بزَمن إنتاج النّظرية في مَنشَئِها، أو زمن تلقّيها، أو الزّمن الذي اسْتَغْرَقتْه في هجرَتِها. وكلّما لَـــمَسْنا هوةً زمنية سحيقةً، واتساعَ المُدّة الفاصلة بين الأزمنة المذكورة، كلّما قادَ ذلك إلى تيْسيرِ تسَلُّلِ عناصر أخرى تُسْهِمُ في تشويه النّظرية، وإكسابِها حمولةً مغايرةً لدلالتها الأصلية.

ينضافُ إلى عُنصر الزّمن عنصرٌ أخرُ ضالِعُ الحضور في الكتابات التي اهتمّتْ بانتقال النّظريات والأفكار والمفاهيم. نقصد هنا **"عنصر الحاجات والإكراهات الثقافية والمادّية[10]"**. ما يعنينا في استِدْراجِ هذا العنصر هو إحالَتُه على مجموعة من الجهات والمواقِع الخارجية التي تكْتَسي سلطةً عُلْيا، تُخَوّل لها أن تكونَ فاعلةً في عملية إنتاج المعرفة، ومن ثَمَّ في صَقْلِ النّظرية، وتدجينها عبرَ تعديل الأفكار والمفاهيمِ، لِتُصَيِّرَها مُتساوِقةً مع أهدافها الخاصّة، سواء كانت سياسيةً أو مادّية أو ايديولوجية...، وتَتمَظْهَر هذه المواقعُ ذاتُ السّلطةِ في صورة مُحَفّزاتٍ أو موانِعَ تُرخي بظلالِها وتأثيراتِها على الانتقال، إذ تُكيِّفُ العمليةَ مع حاجاتِها. ولذلك، جازَ أن نتحدَّثَ عن وجودِ سلطةٍ في كلّ مرحلة تسعى جاهِدَةً إلى التأثير في المشهد الثقافي والفكري بجُملةٍ من الأفكارِ والمذاهب، وتُفْسِحُ المجالَ لكلّ الأفكار التي تتماشى مع ميولاتِها، وتتركُ لها فرصةَ التّسرُّبِ، لا سيما إذا كان الفِكْرُ الوافِدُ دِرْعاً تحتمي به.

استناداً إلى ما تقدَّمَ، تتكَشّف القيمةُ التي تكتسيها هجرةُ النّظريات والمفاهيم. فقدْ نَهَضَتْ على عناصرَ رئيسَةٍ تُمارِسُ رقابتَها وفعاليتَها على فِعْل الانتقال، وتجعلُ العمليةَ مقرونةً بالتّحَوّلِ الذي يُعرّضُ النظريةَ لقليلٍ أو كثيرٍ من التعديل أو التجاوز أو الدّحْضِ. وقدْ منَحَ هذا التّصوُّرُ الذي يَتَبَنّاهُ أهميةً بالغةً **"للوَعْي"**، كونُه يُسهِّلُ عمليةَ إقْحامِ النظرية في سياقاتٍ ثقافية ومعرفية تختلفُ عن سياقاتها قبل الانتقال. ومن خلالِ منْفَذِ الوعْيِ، أيضاً، يكْشِفُ المسلَكُ القرائيُّ الذي شَقَّهُ الدكتور سعيد يقطين عن إخضاعِه الموضوعَ للتأمّل بناءً على العنصر المذكور. وقد أتاحَ له ذلك تشْقِيقَ القراءةِ من خلال التمييز بين مصطلَحَيْ **"النقْل"**و **"الانتقال"** لِصِلَتِهما الوطيدة بالموضوع، كما نظَر إلى طبيعة كلّ منهما وما يحتويه من دلالاتٍ تُمَكِّنُ من تطوير النّظَر إلى كلّ منهما بصورة إيجابية.

أ– الانتِقالُ

حَرِصَ د،يقطين على التمييز بين مفهوميْ "النقل والانتقالِ" على نحوٍ يطولُ رصْدُهُ إن التَفَتنا إلى التفاصيلِ. لذلك نكتفي في الإشارةِ إلى الفرْق بينهما بما يُضيءُ مأْزِقَ تماهِيهما في صِلتِهما بهجرة النّظرية. ولعلَّ أوّلَ اختلافٍ بينهما

[9] محمد الدغمومي، انتقال المفاهيم، نقد النّقد، ضمن، انتقال النظريات والمفاهيم، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط 1999، ص45.

[10] المرجع نفسه، ص46.

يتجسّدُ في المَبْدأ الذي ينطلقان منه ويتأسّسان عليه. فبالرَّغْم من نِسبتِهما معاً إلى الجذْر اللغوي (ن ق ل)، إلاّ أنّ الاختلافَ الصّرفي كان كفيلاً بإكْسابهما دلالتَيْن مغايرَتَيْن. فصيغةُ المصدر "انتقال" القائمة على "الافتعال" تجعلُ منه مبدأً عامّاً، وفِعْلاً قائما بذاتِه بناءً على ما تقتضيه مصلحة التواصلِ بين الثقافات والأُمَم. فهو "ينهضُ على أساس ضرورة عامّة، وطبيعةٍ كلّية ومتعالية للفعْل ذاته. إنّه فعلٌ إنساني عامّ يكفي تَحَقُّقُ وسَائلِ إنجازِه وشروطِه البسيطة لِيَغْدُوَ قابلا للتنفيذ[11]".

واضحٌ أنّ المَلْمَحَ اللاّفِتَ في رصْدِ دلالة الانتقالِ يجعَلُ من العملية مشروطةً بتوافُرِ قيودٍ خاصّةٍ بينَ البيئتَيْنِ الأصلية والمُستَقْبِلَة. هذه الشروطُ التي تكْمُنُ خلْفَ عملية الانتقال تظَلّ مَكْسُوَّةً بحُلّة مادّية صِرْف، وبهذا يمكنُ القوْل إنّ الحواجزَ التي تُعيقُ عملية الانتقال لا تخرُج عن الإطار المادّي. وداخِلَ هذا الإطارِ، يغدو من اليسيرِ إقحامُ كلّ ما ينضوي تحت نطاقِ التبادلات بين بلَدَيْن، أو عدّة بلدان، من صادرات وواردات في مختلِف المجالات. هذه التبادلية المُؤطِّرة لفعل الانتقال، لا يُحتاجُ لتفعليها سوى اتفاقات مادية وشروط خاصة. وما إن يتمّ تخطّي هذه القيود المادّية حتى يصيرَ انتقال الأشياء والأشخاص أمراً مُتاحاً.

ب– النَّقْــلُ

إذا كان استِجْلاءُ مفهوم "الانتقال" قد أفْضى بنا إلى اعتباره ضرورةً عامّةً، وطبيعةً كُلّيةً ومتعاليةً للفعْل ذاته، فإنّ التوجُّهَ إلى مفْهومِ "النّقل" عوّلَ على منْفَذٍ قرائي آخرَ سيُكَرِّسُ رُؤيةً تجعل من النقل ضرورةً خاصّةً. هذا التصوّر سيجنّبنا تطْويقَ المفهوم بنفْسِ القيودِ التي كبَّلْنا بها عمليةَ الانتقال؛ إذْ لا تكْفِي الرّغْبةُ العامّةُ ليُتَرْجَمَ النّقْل إلى أرضِ الواقع. بل "لا بُدَّ فيه من وجوب "**الوَعي**" به، والإحاس بالحاجة إليه لدى فئة أو جماعة محدَّدة. وعندما يتدخَّل هذا الوعْي، يصبحُ نقْلُ ما عند الآخَر يَرْتَهِن إلى وجوب تحقيقِ غاياتٍ ومقاصدَ خاصّة لدى من يُمارِسُ عملية النقل هذه أو يدْعو إليها[12]".

التَّـــدَرُّجُ من الانتقال إلى النّقْل، ومن العامّ إلى الخاصّ، يستْنِد في خطاب الدّارس إلى الحواجز التي تقِفُ خلْفَ عملية النّقْل. فإذا كنّا قد سيّجْنا مفهومَ الانتقال بحدودٍ مادّية، وكبّلناهُ بقيودٍ خاصّة، ما إن يتمَّ التخلّصُ منها حتى يتمّ تفعيلُ عملية الانتقال بشكل سَلسٍ، فإنَّ عمليةَ النّقْلِ تتجاوزُ هذا الإطارَ المادّي الضيِّق، لتصْطَدِمَ بحواجزَ ثقافية وإرادية يصعُبُ تخطِّيها. من هذا المنطلَق، لا يكْفي عبورُ الكتابِ بوصفِه حاملَ أفكارٍ ونظرياتٍ من بلَدٍ إلى آخَر، لِنَضَعَ أنفسَنا في قلْب عملية النّقْل. ذلك أنّ هذه الأخيرةَ تتطلَّبُ قناعةً راسخةً تتولَّدُ لدى النّاقِلِ تجاه ما ينقُلُه من نظريات وأفكار. وهنا يبْرُزُ عاملُ الوعْيِ بوَصْفِهِ ينمُّ عن اختيارٍ وإرادةٍ في اجتذابِ المنقولِ (النّظرية)، بُغيةَ الاستفادة منه، وتحويلِه إلى الفضاء الثقافي الجديد.

وعموماً، فبالقَدْرْ الذي سعَينا فيه إلى رَسْمِ حدود فاصلةٍ بين المفهومَيْن، بقدْرِ ما وجدْنا أنفُسَنا مُلْزَمين بالعودة

[11] سعيد يقطين، انتقال النظريات السردية، المشاكل والعوائق، ضمن، انتقال النظريات والمفاهيم، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط 1999، ص54.

[12] المرجع السابق، ص54.

إلى نسْجِ الخيوطِ التي تُعزِّزُ اتِّصالَهما. ذلك أنَّ ما كشفَتْ عنه المقارنةُ التي بَنَيْناها هو أن العمليَّتَيْنِ تحتفظان لنفْسهما ببعض التّداخُل وتُحقّقانِ التكامُلَ. يمكنُ أن نلمَسَ ذلك من خلال اعتبارِ عملية النّقْلِ مشروطةً، أوّلاً، بالانتقال. إذْ الانتقالُ هو ما يضْمَنُ إتاحةَ النّظريةِ وحضورَها، ثمّ يأتي النّقْلُ، كخطوة تاليةٍ، تنْشُدُ تحويلَ ما انتقَلَ إلى موضوعٍ للنّقْلِ. فعلى سبيل المثال، يمكن القول إنّ انتقالَ الكتابِ، وَفقَ المبدأ العامِّ الذي يتيحُ التصديرَ والاستيراد، هو الذي يُيَسِّرُ عمليةَ نقْل وتمثّلَ ما يحتويه ذلك الكتاب من أفكار ونظرياتٍ. غيرَ أنّ الوشائجَ بين النقل والانتقال لا تُفْصِحُ عن نفسِها دوما بنفس الصيغة، وعلى هيْئةٍ واحدة. للتّدْليلِ على ذلكَ سنقوم باستِدْراجِ صيغةٍ معْكُوسةٍ يحظى فيها نقْلُ النّظريةِ بالسّبْقِ والأولويّة على حسابِ الانتقال. لا سيما إنْ أُتيحَتْ للناقلِ إمكانيةُ تَمثُّلِ النّظرية في مَنْشَئِها وفي تُرْبتِها الأصلية. آنذاكَ يعمَد النّاقلُ إلى نقْلِها وتَكْييفِها مع الوَسَط الجديد الذي يستَعِدّ لاحتضانِها، على أن تَجْريَ بعد ذلك عملية الانتقال كخطوة لاحقة. وفي هذا الصّدد، نستَحْضِرُ جهودَ مجموعة من النقاد والأدباء الذين تشبّعوا بالنّظريات الغربية، والمناهج النقدية، خصوصاً في النّصف الأوّل من القرن العشرين، وأتاحوا تداوُلَها خارجَ فضائها الثقافي، وخارجَ لغتها الأصلية، بعد أن تشبَّعوا بها وراعَوْا التحْويلَ الذي أضأْنا جوانبَه في رصْدٍ سابقٍ.

١– نَقْلُ النّظريات: التّحدّيات والمُعيقات.

أوّلُ مَدْخَل نُراهِن عليه، في هذا الجزء الأخير من الدّراسة، هو تأطير عملية "نقل النظريات" بين العالَمَيْن الغربي والعربي، وذلك لعدّةِ اعتبارات أهمّها أنّ الاهتداءَ إلى مفهومِ النّقْلِ داخل نطاقِ الدّول الغربية يتعذّرُ في كثير من الأحيان، بِحُكْمِ تَحَرُّكِ هذه الأخيرة في شبكة من الأنساق المشتركة على كافّة المستويات، ومن ثَمَّ في نطاقِ تراثٍ حضاري مشترَك. ويمكن تعزيزُ هذا الطابع الثقافي الموحَّد بطابَعٍ آخَرَ لغوي، يَمَسُّ بالأساس البُعْدَ الاصطلاحي. إذْ "يُساهِمُ هذا الاشتراكُ اللغوي في جعْلِ المُشتغلينَ بمختلفِ المجالات المعرفية والعلمية، بالرّغم من تبايُنِ لغاتهم، يتكلّمونَ لغة واحدة ومُوحَّدَةً، وداخلها يُبدعون ويختلفون[13]". هذه الاعتباراتُ المُشارُ إليها هي ما يُسَوِّغُ تَحَقُّقَ انتقال النظرية بصورة طبيعية داخل نطاق الدول الأوربية، رغم بعض الصعوبات التي يمكن أن تعترِض سبيلَها. كما جرى تماماً، لمّا انتقَتْ نظريات السّرد من روسيا إلى فرنسا، وبعدَها إلى مختلِف البلدان الأوربية. غيرَ أنَّ العبورَ إلى ملامَسَةِ الوعود التي تنْطوي عليها العلاقة الثانية، التي يُعَدّ العالمُ العربي طَرَفاً فيها، يقود إلى استِنْباتِ السؤال الآتي: كيف تتحقَّقُ عمليةُ النّقْلِ إذا سلَّمْنا بأنّ التبايُنَ المعرفيَّ والاختلافَ هو السِّمَةُ التي تطْبَعُ العلاقةَ بين المنقولِ منه والمنقول إليه؟

يُتيحُ هذا السؤالُ تأمُّلَ العلاقة بين العالَمَيْن الغربي والعربي، وما تنْطَوي عليه من اختلافات تحولُ دون تحقيق التواصل الثقافي بصُورته الملائمة. ومَرَدُّ ذلك إلى الاختلاف الجوهري في البنيات الثقافية والتّاريخية، إذْ أنّ كلَّ أمّة تمتاز بخصوصيتها الثقافية بكُلّ ما يحملُه مفهوم الثقافة من معانٍ، "الثقافةُ خاصية مرتبطة بحضارةٍ وشعبٍ ولغةٍ ومرحلة تاريخية.

[13] سعيد يقطين، انتقال النظريات السردية، المشاكل والعوائق، ضمن، انتقال النظريات والمفاهيم، ص54.

إنّها تنْبُعُ من الهُوية وليس من التغريب الثقافي[14]". في ضوْءِ هذه الأنساق الثقافية والمعرفية المُتبَاينة، نشرعُ في اجتِذابِ أوّلِ عائقٍ يحُولُ دون تحقيق التضايُفِ مع النظريات الغربية، ويتمثّلُ في كَوْن النظريات المنقولة إلى التربة العربية تظلُّ مُسيَّجةً بحُدودِ "**النُّخْبَوية**"، ومُنْتَسبَةً إلى فئة خاصّة. إنّها، كما يشير إلى ذلك سعيد يقطين، لا تمْلكُ القدرةَ على التّسَرُّبِ إلى النسيج الاجتماعي العربي العامّ، لِتَجدَ نفسَها حبيسةَ نُخْبَة محدّدة، ومحْصورةً في نطاقٍ ضيّقٍ تُمَثّلُه بعض الجهود الفرْدية لأشخاص اصْطَدموا ببنياتٍ اجتماعية يصْعُبُ عليها **قَبولُ الغريب**. ومن ثَمّ، تظلّ غيرَ مُؤهّلَةٍ للتفاعل السّريع مع ما يتمّ نقْلُه.

بمُواصلة رَصْدِ مُعيقاتِ انتقال النظريات الأدبية، نُطِلُّ على حاجزٍ جديد، تُمثِّله النظرة الاختزالية والتّبسيطيةُ، بما هي عنصرٌ مُخِلٌّ يجابه به الناقل النظريةَ، ما يقود في النهاية إلى عدَم تحقيق الأهداف المنشُودةِ من النّقْلِ، سواء تعلّق الأمْرُ بالاستفادة من هذه النّظرياتِ، أو استثمارها لتحقيق التّراكُمِ الذي ينفتحُ على التّطوير والإغناء. تنطوي هذه المنطقةُ الاختزاليةُ على إتْلافِ ما تكون النيّةُ لإظْهارِه، وتبْديد ما يُحْرَصُ على تأْمينه. ومَرَدّ ذلك إلى الطريقة التعسّفية التي يعْمَدُ إليها الناقلون، سواءٌ اتخذَتْ مظْهَرَ **التلخيصِ** المُخِلِّ بالنّظرية الذي يؤدّي إلى تقْزيمها وإفْقادِها معالِمَها الكبرى، ما يُوَلِّدُ بدوره انعكاساتٍ على فِعْلِ التلقّي. أو اتّخَذَتْ مظهَرَ الانكباب على **الفِعْلِ التّرْجمي** الذي يُعدُّ أبرزَ صيغِ النّقْلِ.

وأمامَ تعدُّدِ التّرْجماتِ والإقبالِ عليها في الصحافة والمجلاّت الثقافية، كان لا بدَّ أن يصْطَدِمَ المتلقّي بترسانةٍ من المصطلحات الجديدة، "ممّا أوْصَلَ إلى نوع من الفوضوية في استعمال المصطلحات في المؤسسة الواحدة، أو القسم الجامعي الواحد دونما تنسيقٍ أو تحديد[15]". أمام هذا الاضطرابِ والفَوْضوية في ترجمة المصطلحات، تنْضافُ إذن صعوبةٌ جديدة أمام المتلقي العربي، ما يقفُ عائقاً دون استيعاب النظرية والاستفادة منها.

*** الخاتمة**

في مقامِ الخَـــتْـــمِ، نُذَيِّلُ استِنْطاقَنا لبعض المعيقاتِ التي أفْصحَتْ عنها عمليةُ نَقْلِ النّظرية، بالاتفاق مع الدكتور يقطين الذي فتَحَ أفقاً رحْباً لتأمُّلِ الموضوع، في كَوْنِ المشاكل المترتّبة عن اجتذابِ النّظريةِ ومُحاولةِ تَكييفِها مع الوسَطِ الجديد الذي وَفَدَتْ إليه تظلُّ عديدةً، والنّزوعُ إلى حَصْرِها ينطوي على عِبءٍ شاقٍّ، ويتطلّبُ لوحدِه دراسة مُستقلّة. غير أنّهُ يُمكِنُ إجمالُها في عبارةٍ واحدة كافية لتشخيص المشْهَد الثقافي والأدبي والرّاهن، وهي انعدامُ التواصُلِ والتفاعُلِ بين النّاقلينَ فيما بينهم، وهي النتيجةُ التي تحَصَّلَتْ من داخلِ استِدْراجنا للفعل الترجمي وفوْضى المصطلح، أو بينَ الناقلينَ والمتلقّي. كما أنّ التعامُلَ مع فِعلَ النقْلِ بكثير من الاسْتِسْهال والتسرّع، دونما أي تمثّل أو إدراكٍ للتّعَـــدُّدِ المَرجعي قد أفضى إلى السقوط في نظرة اختزالية غيرِ نَتُوجٍ. هكذا، يصبحُ التوجّه إلى النظرياتِ الأدبية، بدون تمثُّلِ مضامينها المعرفية، وتبَيُّنِ

[14] ماجد السامرائي، نحن والعولمة، نصف قرن من النقد الأدبي، مهرجان المربد، العراق، 2000م، ص345.

[15] ابراهيم حسن الفيومي، إشكالية المصطلح النقدي في مواجهة النّص الرّوائي، مجلة جامعة دمشق، مج06، ع22، 1990م، ص61.

أبعادها وخلفياتِها ومُرتكَزَاتِها النظرية عامِلاً حاسِماً في الاحتفاظِ لها بالتّبسيطية والمحْـــدُودية.

*** المراجع**

ابراهيم حسن الفيومي، إشكالية المصطلح النقدي في مواجهة النّص الرّوائي، مجلة جامعة دمشق، مج06، ع22، 1990م.

ادوارد سعيد، انتقال النظريات، ترجمة أسعد رزوق، مجلة الكرمل، العدد التاسع، 1983م.

دانييل هنري باجو، الأدب العام و المقارن، ترجمة غسان السيد، (د، ط)، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د، ت).

سعيد يقطين، انتقال النظريات السردية، المشاكل والعوائق، ضمن، انتقال النظريات والمفاهيم، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط 1999.

السيد نصر الدين السيد، الانتظام الذاتي، انبثاق النظام من الفوضى، كرّاسات علمية، المكتبة الأكاديمية، ط2014.

ماجد السامرائي، نحن والعولمة، نصف قرن من النقد الأدبي، مهرجان المربد، العراق، 2000م.

محمد الدغمومي، انتقال المفاهيم، نقد النّقد، ضمن، انتقال النظريات والمفاهيم، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط 1999.